

كنت أفضل ألا يكتب أحد كتاباً عنى

أرنون ميلتشان

فى مساء ١٨ سبتمبر ٢٠٠٨، كان من السهل أن يعتقد المرء خطأ أن هناك افتتاحاً لفيلم ضخم فى استوديو باراماونت، إذ وصلت الأضواء الاستكشافية الساطعة لعنان السماء بينما كان النجوم المشاهير يسبرون على البساط الأحمر ويصحبهم وميض الكاميرات الذى يعمى الأبصار. لكن هذا الحدث كان مختلفاً، إذ كان السبعمئة وكذا من الحضور كلهم من المديرين التنفيذيين للاستوديوهات ومن قادة المجتمع، والذين لم يتأوا لتكريم فيلم بل... رجل.

وصل أرنون ميلتشان مع زوجته أماندا، وبدا غير مرتاح في بذلته الرسمية، أو وسط كل هذا الاهتمام الفائق به. سرعان ما سعى للاختفاء بين حشود الحضور. لكن لم يكن هناك سبيل للهروب من كل الخطابات التي تمتدحه، ومن الفيلم المفصل الذي يوثق إنجازاته السينمائية.

وبالرغم من أن اسمه مرتبط بأفلام ضخمة في هوليوود مثل امرأة جميلة وحرب عائلة روز وسيرى فى لوس أنجلوس ونادى القتال والسيد والسيدة سميث، وملحمة المؤامرة التي أخرجها أوليفر ستون أو فيلم جيه إف كيه، فلم يكن سوى القليلين من الجمهور على دراية بالحياة الخاصة للرجل الذي كانوا على وشك تكريمه بمنحه جائزة أفضل إنجازات العمر. وإعادة صياغة لما قاله ونستون تشرشل فميلتشان عبارة عن لفر ملفوف فى سر غامض بداخل أحجية، وهذا الكتاب يكشف عنه هذا الغطاء الغامض.

هذه هي القصة المثيرة للجدل عن عميل سرى، عن الانشطار النووي، عن صفقات بمليارات الدولارات لمعدات دفاع عسكرية عالية التقنية، عن التوجه الفكرى، عن الوطنية، وعن المسيرة العملية المريبة لواحد غامض من أباطرة هوليوود.

أرنون ميلتشان الذى ولد فى إسرائيل عام ١٩٤٤، عاش الحياة التى أحب كل من إيان فليمينغ وجون لو كاربه أن يكتب عنها، والتى يروق لستيفن سبيلبرغ أو ربما حتى أوليفر ستون أن يصنعوا فيلماً عنها. ميلتشان يحب المخاطرة، ساحر لكنه قوى الشكيمة، كتوم لكنه مشهور... فقط فى أوساط المشاهير. كان عميلاً سوبر بكل معنى الكلمة، وأقرب ما يكون لشخصية حقيقية لجيمس بوند. وهو خبير فى أنواع النبيذ الفاخرة والمقامرة بمبالغ طائلة، والخداع، والسيارات الغريبة، والأسلحة العجيبة، ويملك مجموعة فنية خاصة تقدر بـ ٦٠ مليون دولار متناثرة فى منازله بكافة أنحاء العالم، من موناكو إلى جنوب إفريقيا، ومن باريس إلى ماليبو إلى إسرائيل.

لقد بدأنا هذه المحاولة الكتابية ككاتبين لسيرته بونما ترخيص منه وسرعان ما وجدنا أنفسنا نضطلع بمهمة المخبرين السريين وأصبحنا كمدققين نرفع طبقات متتالية من الأغشية الخفية، ونكشف عن قصة رجل فريد وعن تورطه العميق في صراعات إسرائيل السرية للبقاء.

لعدة أشهر ويون علم ميلتشان أو موافقته، انغمسنا في سجلات المحاكم والمقالات غير المعروفة في كل من الصحافة العبرية والإنجليزية، بالإضافة إلى الروايات والمذكرات الخاصة. واعتمدنا بشكل كبير على معرفتنا المباشرة بالثقافة واللغة التي انبثق منها موضوعنا، وتحدثنا مباشرة مع الشخصيات الأساسية المذكورة في الكتاب، ووزنا معظم المواقع المذكورة به.

بذلنا كل الجهد لتوثيق الوقائع بأكبر قدر ممكن من الصدق والتكاملية والحيادية والصحة، وبوضع الأمور في سياقها التاريخي الكامل. قمنا باجتزاء العديد من المقولات المأخوذة عن ميلتشان أو آخرين المستخلصة أو المترجمة من مقابلات نادرة أجريت على مدار عقود في الصحافة العالمية. تتضمن المصائر الأخرى السيرة الذاتية لجد ميلتشان والتي نشرها بنفسه، بالإضافة إلى سلسلة من المخطوطات غير المعروفة الواقعية والمختلفة، والمكتوبة تحت اسم مفترض لشخص ذي علاقة مباشرة بحياة ميلتشان السرية. ولقد اكتشفنا هذا الكاتب بواسطة عملية بحثية، وواجهناه شخصياً، وتأكدنا من صحة هويته.

وما أن انتهينا من إعداد المخطوطة، فاجأنا بها ميلتشان ومنحناه الفرصة للرد. في البداية كان متردداً وربما حتى متخوفاً، وفي النهاية وافق على مقابلتنا بعدما قدمنا له كل التلميحات بنوايانا الحسنة الشريفة. وخلال القليل من الاجتماعات الودية، تمكنا من التحقق من صحة معظم التصريحات الواردة بهذا الكتاب، وصححنا العديد من أخطاء الوقائع. ومن جانبه، فقد رفض ميلتشان تأكيد أى من التصريحات العديدة الحساسة الخاصة بالأمن أو إنكارها. ومع ذلك وعبر أرفع مستويات السلطة في إسرائيل تحققنا

جيداً من مجمل الحقائق الحساسة محل الخلاف والمتطقة بالأمن الإسرائيلي، والتي يعج بها هذا الكتاب. كان هناك العديد من المصادر، لكن أهم التأكيدات جاءت على لسان الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز نفسه، في مقابلة خاصة أجريتها معه في مقر الرئاسة بالقدس في ٨ فبراير ٢٠١٠ وقال:

أرنون رجل متميز وأنا من جنده، للعمل السرى خارج النظام الرسمى، وأسهم بأفكار مذهلة ومستوى من الإبداع ساهم بشكل رائع فى خدمة بلدنا. عندما كنت وزير الدفاع، كان أرنون معنياً بالعديد من الأنشطة الشرائية الخاصة بالدفاع العسكرى والعمليات الاستخباراتية. وكان مناط قوته صنع علاقات على أعلى المستويات فى عدة دول حول العالم، ومنها دول هامة لا تربطها بإسرائيل علاقات رسمية. ولقد قدمت نشاطاته فوائد هائلة لنا استراتيجياً، ودبلوماسياً، وتكنولوجياً ولا يزال أرنون يقوم بذلك حتى يومنا هذا، لكن على الصعيد الاستراتيجى فحسب.

أناس قليلون فى هوليوود أو فى أى مكان على دراية بإنجازات ميلتشان «البطولية»، والعديد من أصدقائه المقربين سيفاجئون عندما يقرعون ما يلى. أخبرنا سامر ريدستون مالك شركة الإعلام الضخمة (فياكوم) إنه خارج نطاق الهمسات والأفلام، لا يعرف سوى القليلين نور أرنون فى إمداد إسرائيل بحاجاتها للدفاع العسكرى، وتكوين قدراتها الرادعة المتقدمة. أنا ومعظم الناس لا نعرف تفاصيل ذلك، لكننى أميل إلى الاعتقاد بأنه رجل عظيم. بالنسبة لى هو السيد إسرائيل، إذ عرفنى على جميع رؤساء وزراء إسرائيل منذ الثمانينيات.

قال عنه روبرت مروخ أهم أبطورة الإعلام العالمى ومدير نيوز كوربوريشن: أرنون ميلتشان رجل متعدد المواهب شغوف بكل ما يقوم به، فهو رجل أعمال إسرائيلى، وسياسى إسرائيلى متحمس، ومنتج هوليوودى وجامع رائع للأعمال الفنية. إنه صديق وفى وكريم يتصادف أنه أيضاً شريك قديم وأهل الثقة.

أيضاً قال عنه بيتر شيرنين مدير ورئيس مجلس إدارة فوكس إنترنتمنت ذات مرة مازحاً "إياك أن تقول نكاتاً عن رجل يستطيع بسهولة جلب أسلحة دمار شامل".

فى الواقع ربما لا يكون الكثيرون على دراية بتفاصيل حياته السرية، لكن يكاد كل شخص يعيش على هذا الكوكب أن يعرف العديد من إسهاماته فى ثقافتنا الشعبية السينمائية، ولذا أسمينا كل فصول هذا الكتاب بأسماء أفلامه.

وكأى شخص يعمل فى هذا المجال فقد ارتكب بعض الأخطاء الفادحة، وتورط فى العديد من المساعي المثيرة للجدل، واحتك بالبعض بطريقة خاطئة ويبدو أنه يثير الكثير من النقد اللاذع أو حتى الغيرة من بعض ضحاياه، بالرغم من ذلك فإن كثيراً منهم مستعنون للعمل معه مجدداً.

يسعى هذا الرجل ذو الشخصية المركبة والذى عاش لفترة طويلة بأوجه متعددة عن طريق تقسيم حياته أجزاء مستقلة عن بعضها لإيجاد بدائل وسبل عامة لترك أثره على هذا العالم، بتخطى جمع الاستخبارات، وشراء معدات النفاذ العسكرى عالية التقنية، والأفلام الضخمة فى هوليوود. ميلتشان ضالع بشدة فى السياسة، أو على حد قوله ناشط سياسى قوى وراء الكواليس. ومنذ أعوام كان ينزعج بشدة لمجرد ذكر كلمة السياسة، كما كان ينزعج من لفظ ثرى خاصة عندما يشير إليه، لكن الوقت والخبرة عملا على شفائه من هذا الانزعاج.

لم يكتب أرنون بعد فصله الأخير وقد بلغ الخامسة والستين من عمره. ولا يزال يرى فرصته التالية، وحلمه التالى، وفيلمه المقبل، كفرصة لإحلال السلام فى الشرق الأوسط!!

وكما فى أى فيلم ضخم فى هوليوود، ففيلم الإثارة المتمثل فى حياته حتى الآن، سيكون له جزء ثان بأسلوب أو آخر.